بطولة ملك

(٩)

الشَّمالُ الجامِحُ

د. عبد العزيز بن عبد الرحمن الثُّنَيّان

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الثُنيّان، عبد العزيز بن عبد الرحمن

الشمال الجامح. - الرياض.

٢٤ص، ١٧ X ٢٢ سم (سلسلة بطولة ملك؛٩)

ردمك: ٤-٤٨٠-٢٠-٩٩٦٠

١- عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ملك السعودية

٢- السعودية - تاريخ الملك عبد العزيز ٣- كتب الأطفال - السعودية

أ - العنوان ب - السلسلة

ديوي ٩٥٣،١٠٥ ١٨/٤٠٩٠

ردمك: ٤-٤٨٠-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٨/٤٠٩٠

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م

حقوق الطبع محفوظة للناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

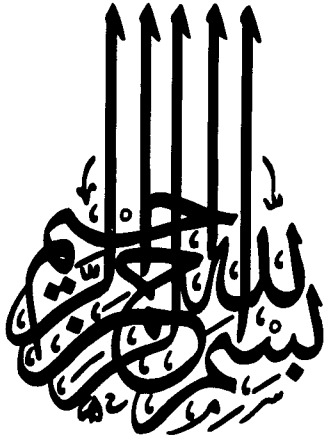

بسم الله الرحمن الرحيم

الشَّمالُ الجامِحُ

حائلُ ذاك الحصانُ الجامح!

... يقولُ الإمامُ عبدُ الرحمن الفيصل رحمه الله: إنَّ الحكومَةَ البريطانيةَ إمّا أنها تستطيعُ مساعدتَنا لكنَّها لا تُريدُ، أو أنها تُريدُ مساعدتَنا لكنَّها لا تستطيعُ.

وفي كلتا الحالتَين يجبُ أن نكونَ مهيَّئِينَ لمساعدة أنفُسنا.

ووافقَه على هذا الرأي الشيخُ عبدُ الله بنُ عبد اللطيف آل الشيخ - رحمه الله - المفتي الأعلَى في ذلكَ الوقت، والذي توُفِّيَ سنةَ ١٣٣٩هـ.

وكانَ هذَا منهج الملك عبد العزيز طيَّبَ الله ثرَاه؛ فالاعتمادُ على النفْس أساسُ انطلاقتَه، والاتكالُ علَى الله عقيدتُه وسلاحُه.

ولكنَّه فَطنٌ ينشُدُ المعونة، وعبقريٌّ يطلبُ الدعمَ، ويخشَى سطوةَ الدُّول العظمَى.

ولهذا عملَ على الحياد، والبُعد ببلاده عن الأخْطار.

وكانَ آلُ رشيد يجدُون الدَّعم من الأتراك، فالسلاحُ يصل باستمرار، والمالُ يفدُ بينَ الحين والآخر، والرجالُ من الأتراك يحاربونَ في صُفوفهم.

وانتهت الحربُ العالميةُ الأولَى، وانقطعَ الدعمُ التركيُّ لآل رشيد، ورأى الملك عبد العزيز أنَّه لا بُدَّ من إنهاء إمارة آل رشيد في حائل.

فقدْ عرفَ عن التواصُل الذي صارَ بينَ مكةَ وحائل، ثمَّ الدَّعْم الذي باتَ في شَرق الأردنِّ والعراق، حيثُ ابنَا الحسين بن عليّ هناكَ.

وتوالَت مكائُد الحسين بن عليّ، وتتابعَتْ رسائلُه إلى الخُصوم المناوئين للمَلك عبد العزيز سواءً في حائل أو عسير أو أيِّ مكان آخرَ.

إن هزيمَته في تُربةَ، وانكسارَ شوكَته، وتحطيمَ قوَّاته، واستيلاءَ الملك عَبد العزيز على المعدَّات التي كَسبها من الأتراك في المدينة المنورة ألهبَتْ عداوتَه وأشعلَت النارَ في قلبه.

وصارَ الحسينُ يكاتبُ هذا وذاك، ويقولُ في إحدَى رَسائله لابن

رشيد: عدوُّكَ عدوُّنا يا بنيَّ، بل عدوُّ العرَب والإسلام، وهذَا السلاحُ منَّا للحَرب، وهذا المالُ.

أمّا الرجالُ فعندكَ شمَّر، وفيها الأشبالُ.

سبحانَك يا ربِّ! حنانَيْكَ يا مَلكَ الملوك! يا معزَّ مَن تشاءُ ويا مذلَّ مَن تشاءُ.

كيفَ يكونُ عبدُ العزيز عدواً للعرب وعدواً للإسلام وهوَ الحاكمُ بشَرع الله، الوقّافُ عندَ حدود الله، الطالبُ للسِّلم، الخاطبُ للأمْن، الكارهُ للحَرب، المرسلُ الوفود؟!

ألمْ يقل ابنُ رشيد: عشرة آلاف بندقيَّة وصلتْني من تركيَّة سوفَ أكسرهَا على رأسكَ يا عبدَ العزيز، حينَ كتبَ إليه أثناءَ الحرب العالمية الأولىَ وطلبَ الاجتماعَ به لأجل السِّلم والخير؟!

ألمْ يقُل عبدُ الله بنُ الحسين بن عليٍّ: سوفَ نصومُ في الخُرْمة ونُعيِّد عيدَ الأضحَى في الأحساء؟!

إن إرادةَ الله غالبةٌ، وحكمَه نافذٌ، والعاقبةَ للمتَّقينَ وتوالت انتصاراتُ الملك الظّافر، وعادَت الأقاليمُ النافرةُ، ورجعَت المناطقُ

المزَّقةُ، وعظُمَت السلطةُ، وأصبحتْ كلمةُ البطَل مسموعةً وقوتُه مرهوبةً.

وحائلُ جُزءٌ من مُلك الأهل والأجداد، وآلُ رشيد أمراءُ من قبَل آل سعود؛ فهُم الذينَ أمّروهم، وهُم الذين مجّدوهم.

ولكنَّها الدنيا تدورُ، والدهر قُلَّبٌ!

وصمَّمَ الملكُ على حسْم الأمر، وإرجاع ذلكَ الإقليم الجامح، وتأديب أولئك العصاة.

وعزَم علَى إنهاء إمارة حائل؛ فالوقتُ قد حانَ، والأسبابُ قد تكاملَت.

وأدركتْ قبائلُ شمَّر معَ الأيام أنَّ المستقبلَ للملك عبد العزيز، ولهذَا انقسمتْ إلى فئتَين.

ففئة منهم أعلنتْ ولاءَها للمَلك، وتحوَّلتْ عن بداَوتها، وسكنَتْ في الهِجر التي أقامها البطل الظافر.

وفئةٌ أخرَى بقيتْ تُكابر، وظلت تُعاندُ، وتسيرُ مع آل رشيد حيثما

ساروا، وتأتمرُ بأوامر أسْرةٍ أفلت نجومُها، وغابت غُيومُها، وانخسفت أقمارُها، وحان حيْنُها.

فقدْ دبَّ الخلافُ، وسادَ الخصامُ بينَ آل رشيد في حائل، وتعاقبُوا على الإمارة، وأراقُوا الدَّمَ فيما بينَهم.

واختلفَتْ كلمتُهم، وتعددَّتْ آراؤُهُم، وتوالَتْ زعاماتُهم، واستمرَّت الهُدْنةُ بينَهم وبينَ الملك عبد العزيز بعدَ معركة جُرَاب سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م، حيثُ انشغلَ الملكُ عبدُ العزيز بتثبيت أقدامه في الساحل الشرقيِّ، ثم بالمواجهة معَ الحسين بن عليٍّ في تربةَ سنة ١٣٣٧هـ، ثم باسترجاع منطقة عَسير بعدَ ذلك.

وكانتْ هدنةً غيرَ مقصودة؛ فآلُ رشيد يتنازعونَ فيمَا بينهم، ويتناحرونَ، ويقتلُ بعضُهم بعضًا، والملكُ البطلُ يَبْني ويُؤسِّسُ، ويُوحِّدُ ويُلملمُ، ويستميلُ القبائلَ، ويقوي الروابطَ، ويُفاوضُ ويُسالمُ، ويكرِمُ الوافدَ، ويعفُو عن الجانح.

وبدأ الزحفُ السعوديُّ في شوال عام ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م، عندَما أرسلَ الملكُ عبدُ العزيز ابنَه سعوداً علَى رأس قوَّة كبيرة للإغارَة على

فئات من قبيلة شمَّر التي كانتْ تناصرُ ابنَ رشيد.

ونجحَتْ تلكَ القوةُ في إغارتها، وأدَّتْ رسالتَها وعادَتْ.

وكانَ الملكُ يريدُ بذلك إنهاكَ الخصوم وإرباكَ الأعداء، وإظهارَ القوة.

ثم انشغلَ الملكُ بحوادثَ أخرَى صرفَتْه عَن مواصَلة الهجوم؛ فقدْ حدثَ صدامٌ بينَ فئات من رجال البادية معَ أمير الكويت، وبادرَ بتسوية ذاكَ النِّزاع، ثمَّ عادَتْ المياهُ إلى مجاريها في تلكَ المنطقة الحدودية معَ الكويت.

وحينَ فرغَ من تلك المهمَّة دفعَ بعضَ قواته إلى مهاجمة البادية المناصرة لآل رشيد، ونفَّذَتْ تلكَ القوةُ مهمَّاتها، ثم عادتْ.

كرٌّ وفرٌّ، وهجومٌ بعدَ هجوم، واشتباكٌ إثرَ اشتباك، وإرباكٌ للخَصم، إنها حربُ استنزاف، وإغاراتُ إرهاب.

ثم استنفرَ الملكُ عبدُ العزيز أتباعَه، ومشَى بهم من الرِّياض، وتَوجَّه إلى القصيم، واجتمعَ لَديه في بريدةَ جَمْعٌ من المقاتلين قُدِّر بعشرة آلاف.

وقسَّم الجيشَ إلى قسمين:

الأوَّل بقيادة ابنه الأمير سُعود، ومهمتُه مهاجمةُ القبائل المؤيِّدة لابن رشيد شمالَ جبل شمَّر وشرقه.

والقسْم الثاني بقيادة أخيه محمَّد بن عَبد الرحمن، وأمَره أن يُهاجمَ أطرافَ حائل.

أما هوَ فبقيَ في القصيم يرقبُ الأمرَ ويتابعُ الأحوالَ.

ووصلَت القوةُ الزاحفةُ، وسادَ الذعُر والخوفُ ذاك الإقليمَ. ولما قاربَ الأميرُ محمدٌ أطرافَ المدينة قامَ أهلُها يستأذنونَه ويرجُونه إرسالَ وفد من قبَلهم إلى الملك عبد العزيز في بريدة، فأذن لهم بذلكَ.

ووصلَ الوفدُ، وقابلَ الملكَ عبدَ العزيز، وعرضَ على الملك موافقتَهم علَى شَرْطٍ كان الملكُ عبدُ العزيز قد فاوضَهم عليه في سنة مضَتْ وأبَوْا، وحينَ اشتدَّ الخطرُ وأدركُوا قُرْبَ النهاية جاؤوا يطلبون ذلكَ الشرطَ ويعلنونَ الموافقةَ.

وكانَت المفاوضةُ السابقةُ بينَ الملك عبد العزيز وآل رشيد أن تكونَ الشؤونُ الخارجيةُ لجبل شمَّر في يد الملك عبد العزيز والشؤونُ

الداخليةُ في يد ابن رشيد.

إلا أنَّ الملكَ عبد العزيز رفضَ هذه المرةَ عرضَهم، وطلبَ أن يعودَ إقليمُهم إلى سابق عَهده معَ آبائه وأجداده وأن يشملَه التَّوحيدُ والانضواءُ تحتَ رايَته، وأن تَنتهيَ إمارةُ آل رشيد.

وأجابَ الوفدُ بقوله: يا عبدَ العزيز، سنعودُ ونعرضُ الأمرَ علَى صاحب الشَّأن، فإذا قبلَ كان خيراً، وإلاّ فأنت بريءُ الذِّمَّة.

وعادَ الوفدُ وعرضَ مطالبَ المَلك عبد العزيز، ورُفضَت الشروطُ والمطالبُ، واحتكمُوا إلى السيف.

وكانَ الأميرُ سعودٌ قدْ نجحَ في مهمَّته، وأرعبَ القبائلَ التي هاجمَها، ثمَّ توجَّهَ نحوَ حائل للمشاركَة في الحصار.

واجتمعَت القواتُ السعوديةُ في الحصَار، وطوَّقَت المدينةَ، واستدعَى الملك أخاه محمداً، ووحَّد القيادة في يد ابنه سعود.

وطالَ الحصارُ، وحدثَتْ مناوشاتٌ ومصادماتٌ، وصارَتْ يوماً لهؤلاء ويوماً لأولئك.

وفي أثْناء الحصار قدمَ أميرٌ من أمراء آل رشيد من الجوْف كانَ قد رحلَ إليها في وقتٍ مضَى، هو الأميرُ محمَّدُ بن طَلال.

وحينَ جاءَ الغائبُ خافَ منه الأميرُ القائمُ عبدُ الله بنُ متعب بن رشيد، وخرجَ من حائل، وسلّم نفسَه للأمير سُعود بن عبد العزيز الذي أخذَه إلى الرياض، حيثُ الملكُ عبدُ العزيز.

واستغلَّ الأميرُ الرشيديُّ الجديدُ الموقفَ ورحيلَ الأمير سعود بن عبد العزيز فتولَّى الإمارةَ، وصارَ يشنُّ الإغارةَ على القوات السعودية، وعلى القبائل التي أيَّدَت الحكمَ السعوديَّ في تلك الجهات.

وعَرَفَ الملكُ بظهور هذا الأمير الجديد، ولملمته الأمرَ، وهجومه المتواصل، فهبَّ إليه من الرياض في الثالثَ عشرَ من شهْر ذي الحجَّة سنة ١٣٣٩هـ/ ١٩٢١م.

وكانَ الملكُ قد سَيَّرَ قبلَ مَسيره فيصلَ الدويش، وأمرَه أن يتوجَّه بقوَّة من رجال البادية إلى جَبل شمَّر، ويبدأ بمحاصَرتهم حتى يصلَ هوَ إليه.

ومشَى الدويشُ ومعَه ألفان من المقاتلين، ونزلَ في موقع قريب من حائل يُسمَّى ياطِبْ.

وبعدَ أربعة أيام من وصوله عرفَ أن ابنَ طَلال خرجَ من حائل لقتاله، فهبَّ مسرعاً إلى موقع آخرَ، اسمُه الجَثامية.

أمّا أميرُ حائل فإنَّه توجَّه إلى موقع حَصين اسمُه النِّيصيَّة، وكتبَ إلى الدويش يدعُوه إلى تَحكيم كتاب الله، وهوَ بذلكَ يريدُ طمأنةَ الدويش وخديعتَه ليباغتَه.

وقالَ ابنُ طلال في كتابه: إنَنا جميعاً مسلمونَ، وبيننا كتابُ الله وسنةُ رسوله.

وصدَّقَ الدويشُ القولَ، وانخدعَ بالرسالة، وردَّ بأنه يُلبِّي الدعوةَ للتحكيم، ويسألُه أن يرسلَ وفدَه لهذه الغاية، واسترخَى الدويشُ، وصارَ ينتظرُ الوفدَ.

إنها البساطةُ والسذاجةُ والغفلةُ والتسرُّعُ.

وغفلَ عن الجانب الشماليِّ من معسكره، وأهمل تلكَ الناحيةَ،

فابنُ رشيد يطلبُ المفاوضةَ.

وكـانَ لابن رشـيـد عـيـونُه، وعـرَفَ تلكَ الثـغـرةَ، وأرسلَ قـلّةً من جنوده في الليل، فاحتلُّوا ذلكَ المكانَ.

وأشرفُوا على معسكر الدويش.

وشرعُوا عندَ انبلاج الفَجْر في الهُجوم.

وارتبكَ الدويشُ واضطربَتْ أحوالُه.

كـيفَ حـدثَ هذا الهـجومُ؟! إنهـا خُـدعـةٌ، إنهـا خيـانةٌ. وجـاءتْه الأخبـارُ: قُتلَ عشـرةٌ من رجاله، جُـرحَ عشرون، وصـاحَ الرجالُ، وتلاقَى الفرسانُ، والتحمَ المقاتلونَ، وأرسلَ الدويشُ يخبرُ الملكَ عبدَالعزيز أن المعركةَ على أشُدِّها، وغضبَ الملكُ البطلُ، رجلُ الحروبِ، وسيِّدُ المواقف، وأمرَ ابنَه سعوداً في الحال أن يركبَ الخيل، ويسرعَ لِنَجدَة الدويش، وتسابقَ الفُرسان، وتسارع الرجالُ.

ثم جاءَ رسولٌ آخرُ من الدويش، يطمئنُ الملكَ أنهم تمكّنُوا من صَدِّ الهجوم، وفتكُوا بأغلب المهاجمين.

وأصدرَ الملكُ أمرَه للدويش أن يلزمَ مكانَه، ولا يتحرَّك، ولا يقومَ بأية حركة أخرَى إلى أن يصلَ إليه.

وانطلقَ الملكُ عبدُ العزيز يتقدَّمُ جيشَه الزاحفَ الذي قُدِّر بعَشرة آلاف مقاتل.

وتوجَّه إلى مركَز الدويش في الجثامية، وحينَ وصلَ اجتمعَ بقادة أتباعه للتشاوُر في خُطَّة الهجوم على ابن طلال في النِّيصيّة المحصَّنة بتلال جعلتْ منها متاريسَ وحصوناً طبيعيةً.

ولم يعلَم ابن طَلال بوصول المَلك وقُواته الرئيسَة إلى هذا الموْقع.

وتقرَّرَ أن ينقسمَ الجيشُ إلى فرَق، فرقة تلفُّ حولَ ابن طَلال من جهة حائل؛ ليقطَعُوا عليه خطَّ الرَّجْعة، وقسْم آخرَ يتقدمُ للمكان المعدِّ للهجوم، وأن يبدأَ الهجومُ عندَ انبلاج الفَجْر بعدَ إطلاق نيرَان المدَافع من القوة الرئيسة التي معَ الملك عَبد العزيز نفسه، وأن تطلقَ نيرانُ البنادق دفعةً واحدةً من كلِّ صَوْب، وأنْ يكونَ الهجومُ من جميع الجهات.

ودنَتْ ساعةُ الصِّفر، وتأهَّبَ الرجالُ، واستعدَّ المقاتلون، وكبَّرَ الملكُ، وقالَ: باسْم الله، إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ.

ثم انطلقَت الرصاصةُ الأولَى، واهتزَّ المكانُ، ومزَّقَ الصوتُ السكونَ.

وسارَت الخُطَّةُ بدقَّة وإحكام. وارتبكَ ابنُ رشيد ورجالُه؛ فالنارُ من كلِّ جهَة، والموتُ من كلِّ ناحية. من أينَ جاءَ هؤلاء المهاجمونَ؟! وكيفَ وصلَ هؤلاء المقاتلون؟!

اشتدَّ الهولُ، وعظُمَ الخطْبُ، وعرَفَ ابنُ رشيد ورجالُه أنَّ الموقفَ ميؤوسٌ منه؛ فقد قُتلَ علَى الفوْر عددٌ كبيرٌ، واعتصم آخرون، واستسلمَتْ جماعاتٌ، وفرَّ بعضٌ آخرُ.

وكانَ ابنُ طَلال في مقدمَة الهاربينَ.

قالَ أحدُ المستسلمينَ يخاطبُ الملكَ عبدَ العزيز: رُماتُكُم ماهرونَ يا مولانا.

قالَ البطلُ: لا. لا. كنَّا نضربُ على النِّيَّةِ في الظلام، ولكنهُ توفيقٌ

من الله.

كمْ أنتَ عظيمٌ أيها الراحلُ! كم أنتَ مؤمنٌ أيها البطلُ! لسانُك رطبٌ بذكر الله، فكلُّ نَصرٍ من الله، وكلُّ توفيقٍ من الله، وكلُّ فَتْحٍ من الله.

رحمَك الله، وأجْزلَ لك الأجرَ عن كلِّ شبرٍ وَحَّدتَه، وعن كلِّ مدينة أعدتَها.

ودخلَ ابنُ طَلال حائلَ، وأغلقت المدينةُ أبوابها، وتحصَّنَ رجالُه في قلاعها وأسوارها المحيطة بها.

وظلَّ يديرُ الأمورَ من قَصر برزانَ، ويتهدَّدُ ويتوعَّدُ.

وأرسلَ الملكُ عبدُ العزيز إلى أهالي حائلَ يقولُ: سلِّموا تَسلَموا. فجاءَ الجوابُ بالموافقة والتسليم، ولكنْ بشرْط أن يُؤمِّرَ الملكُ عبدُ العزيزُ عليهم ابنَ طلال. ولعلَّ هذَا الردَّ جاءَ بإيحاء من ابن طلال نفسه؛ فليسَ في تلكَ الساعات العصيبة زعيمٌ آخرُ يُوحِّدُ كلمتَهم.

ورفضَ الملكُ الطلَب، وزحفَ بقواته، واقتربَ من المدينة، وضيَّقَ

الخناقَ، وطوَّقها من جميع الجهات.

وظلَّ الملكُ يُشدِّدُ الحصارَ ويُشرفُ بنفسه على القتال، وجاعَت المدينةُ، وضاقَت بهم الأرضُ، واستبسلَ أهلُها في الدفاع، ولكنْ أنَّى لهُم ذلك؟!

وكثُرَ الوسطاءُ بينَ الملك عبد العزيز وأهل حائلَ، وعبدُ العزيز يأبَى إلاّ أن تزولَ إمارةُ آل رشيد.

وحاولَ ابنُ طلال أن يقنعَ بريطانيا بالتوسُّط بينَه وبينَ الملك عبد العزيز، فلم تنجحْ محاولتُه.

وطالَ الوقتُ، وكتبَ الملكُ إلى أهالي حائلَ إنذارَه الأخيرَ، وقالَ: قدْ طالَ الحصارُ، وأقبلَ الشتاءُ، فليعذرْنَا الأهالي إذا أنذرنَاهم، لهم ثلاثةُ أيام ليسلِّموا المدينةَ وعائلةَ الرشيد، وإلا فنحنُ إلى غَرضِنا مسرعونَ بالرصاص والنار.

وأذعَنَ القومُ للتهديد، وخَافُوا من الهَجْمة السعودية، ولقيَتْ دعوةُ الملك القبَولَ.

فقامَ بعضُ كبارهم بقيادة إبراهيمَ السبهان بالاتِّصال بالمَلك البطل، واتفقُوا معَه على أن يسلِّمُوا لهَ الحصونَ والقلاعَ ليدخلَ المدينةَ، ويستوليَ على مَقاليد الأمور، وأن يمنحَ جميع سكانها الأمانَ.

وتمَّ الاتفاقُ، وفَتحَت المدينةُ الحصونَ الخارجيةَ المشرفةَ على حائلَ، ودخلَ المقاتلونَ السعوديونَ.

وأمَّنَ الملكُ المنتصرُ الناسَ على أرواحهم وأموالهم، فخرجُوا إليه أفواجاً يشكرونَ اللهَ ويحمدونَه على السلامة، وحفظ الدِّماء والأعْراض والأمْوال.

وعلمَ ابنُ طَلال بما حدثَ، وأُسْقطَ في يده، وبعثَ إليه الملكُ الكريمُ، جابرُ العَثَرات، مندوباً يعرضُ عليه الأمانَ لنفسه ولمَنْ مَعه إن هو استسلمَ.

وطلبَ ابنُ طَلال أن يأتيَ إليه أحدُ أفراد الأسرة السعودية ليستسلمَ له.

وأجابَ الملكُ طلبَه، وقدَّرَ حالتَه النفسيةَ، فأرسلَ إليه الأميرَ عبدَ العزيز ابن مساعد مع ثُلّة من الفُرسان.

واستسلَم الأميرُ ابنُ طلال، وجاءَ إلى المَلك، وكانَ ذلكَ في التاسع والعشرين من شهر صَفَر عام ١٣٤٠هـ، ٣١/ ١٠/ ١٩٢١م.

وانتهتْ بذلكَ إمارةُ آل رشيد، وعادَ الحصانُ الجامحُ، وانضوَى إقليمُ جَبل شمَّر تحتَ رايَة المَلك عبد العزيز معَ بقيَّة الأقاليم.

﴿إنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

عاشَت حائلُ أياماً منَ الخوف وليَاليَ من الحصَار زادَتْ علَى الخمسينَ ليلةً.

واضطربَ أهلُها، وجاعَ سكانُها، وذعرَ قاطنُوها.

ودخلَها الملكُ العادلُ والسلطانُ الرحيم، فعفَا وصفحَ، وعاملَهُم بالحسنَى، وهبَّ يوزِّعُ ما لدَيه من أرزاقٍ وأطعمةٍ.

نفرَتْ حائلُ سنوات طويلةً، ثم عادتْ للمجد والعزِّ تحتَ الراية السعودية.

حنانَيْكَ ربَّاه، أيةُ معاملة كريمة وجدَها المقاتلونَ من المقاتلين؟! وأيُّ تسامح وجدَه المحاربوَن من المحاربين؟!

إذا انتصرَ قومٌ سفكُوا الدَّمَ، أمَّا عبدُ العزيز فيحفظُ الدماءَ، ويصونُ الأعراضَ، ويحمي الأموال.

وإذا سيطرَ غُزاةٌ عاثُوا وبطشُوا، وإذا انتصَرَ عبدُ العزيز عفَا وصفحَ وأكرمَ.

يقولُ أحدُ المستسلمينَ ليلةَ الحصار: كنَّا ليلةَ الحصَار الأخيرة على آخر رمَق، نرَى شبحَ المجاعة والموْت، فأمسَيْنا ليلةَ التَّسليم الأولَى كلُّنا شباعاً، مكسُوِّين مطمئنِّين.

وأقامَ الملكُ عبدُ العزيز في حائل بعد سيطرته عليها بعض الوقت، ينظِّمُ شؤونَها ويرعَى أحوالَها.

ثم استدعَى بعضَ كبارِ رجالها وشاورَهُم فيمَنْ يولِّيه إمارَتهم، ودار الحوار التالي:

عبد العزيز: مَن تريدونَ أن نؤمِّرَ عليكم؟

قالوا: واحداً من آل سُعود، أو من كبار رجالكَ؟

عبدُ العزيز: لا آمنُ أن أُولِّي عليكُم أحداً منَّا؛ فالجراحُ لَمْ تندملْ.

قالوا: وماذا ترى؟

عبدُ العزيز: أريدُ أن أحافظَ على كرامَتكم.

قالوا: وكيف؟

عبدُ العزيز: هذا إبراهيمُ السبهانُ، فهوَ من بني عمِّ آل رشيد ووزرائهم، وهو رجلٌ عاقلٌ فهوَ أميرُكم، وإنِّي واثقٌ بالله ثم به.

وعادَ الملكُ المنتصرُ إلى الرياض ومعَه الأميرُ محمدُ بنُ طَلال، وبقيةُ أفراد آل رشيد، حيثُ بقُوا كراماً أعزةً.

إنه بتعامُله الكريم وبتسامُحه العَظيم يزرعُ الحُبَّ ويُجسِّدُ الودَّ، ولقدْ جعلَ المودّةَ تتنامَى له في صدور رعيَّته، وورَّثَ هذه الخصالَ أبناءَه الكرامَ من بَعده.

وأجزم لو أن المتنبِّيَ عاصرَه لخصَّه بقصائده، ولزادَ عَلى قوله:

هَزمَتْ مكَارِمُهُ المكارمَ كُلَّها
حتى كأنَّ المكْرُماتِ قبائلُ
لو بانَ بالكَرَمِ الجَنينُ بيَانَهُ
لَدرَتْ به ذكرٌ أمُ انثَى الحاملُ
يا افْخَرْ فإنَّ النّاسَ فيكَ ثَلاثَةٌ
مُستعظِمٌ أو حاسِدٌ أو جاهِلُ

وأسدِلَ الستارُ، وانتهَى الصراعُ في الشمال بعودة أمورِه، وإمساكِ لجامِه، وإكرامِ أمرائِه.

ثمَّ هبَّ المجاهدُ البطلُ لموقف آخرَ، ولقرارٍ أخطرَ، سوف نتناولُه في القصَّة القادمةِ «الصبر ينفد»